

دلالة

ألفاظ

القرآن الكريم

عند ابن القيم

د. عبد الفتاح لاشين السيد

## ألفاظ القرآن الكريم

تمتاز الكلمة القرآنية بأنها خفيفة على السمع ، سهلة على اللسان ، تدل على المعنى بيسر وسهولة .

والقرآن الكريم حينما يستعمل كلمة ما في تعبير ، يقصد من استعمالها بعينها دون غيرها معنى لا يوجد في سواها ، وقد يظن صاحب الفطوة الثقية ، والسليقة العربية أنه بالإمكان التعبير والتبديل ، ولكن هذه قدرة بشر - مهما بلغت - فأين هي من قدرة الله ؟ ، وأين هذا من صمعه ؟ « صُنِعَ اللَّهُ الْإِلَهِيُّ أَتَقْنُ كُلُّ شَيْءٍ » ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ » ( النحل ٨٨ ) .

ولقد زعمت الأعراب - يوما - الإيمان ، وتعكف القرآن الكريم قولهم فيقول : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا » ولكن الله - سبحانه - يرشدهم إلى التعبير الصحيح ، ويدهم على الكلمة التي تفصح عما في نفوسهم ، وتكشف عما في صدورهم ، فيقول : « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » ( الحجرات ١٤ ) .

فالدقة في التعبير ، والحيلة في استعمال الكلمة ، مطلب قرآني حرص عليه ، وبه الفطر السليمة إليه ، حتى لا تضل المعاني في الأفهام ، ويضيع المقصود بين الاحتمالات .

وسرى من خلال كلام ابن القيم ما يوضح هذا ، فإل حديث ابن القيم . حديث ابن القيم عن اختيار اللفظ ، واصطفاة الكلمة في القرآن حديث بطول ، ولتحديد الفائدة ، سيكون حديثنا مقصورا على نقطتين : أولاها - الكلمة المعروفة أو المشكورة ، ثانيها - اللفظ إذا وقع مفردا أو مشى أو مجموعا .

### أولاً : الكلمة المعروفة أو المشكورة

لفظ (السلام) تعريفه أو تكثيره :

تحدث ابن القيم تحت عنوان (مسألة) عن تحية الإسلام «سلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، وقال : إن في هذا التسليم ثمانية وعشرين سؤالاً ، وقد استغرقت إجابته

عن هذه الأسئلة مايقرب من سبعين صفحة من كتابه «بدائع الفوائد» .

وها نحن نعلن النظر ، ونتمتع السمع بما حوته هذه الإجابات من أسرار للتعريف أو التذكير في كلمة «السلام» ، يقول :<sup>(١)</sup>

«ما الحكمة في ابتداء «السلام» بلفظ النكرة ، وجوابه بلفظ المعرفة ، فنقول : سلام عليكم ، ويقول الراد : عليكم السلام» ؟ .

وقبل أن يجيب يذكر مقدمة وتمهيداً يصل عن طريقه إلى السر في ذلك ، فيقول : «الجواب عنها بذكر أصل تمهده نرجع إليه مواقع التعريف والتذكير في السلام وهو : أن (السلام) دعاء وطلب ، وهم في ألفاظ الدعاء والطلب ، إنما يأتون بالنكرة إما مرفوعة على الابتداء ، أو منصوبة على المصدر ، فمن الأول : ويل له ، ومن الثاني : خيبة له وجدعاً ، وعقراً ، هذا في الدعاء عليه ، وفي الدعاء له . سقياً ورعياً ، وكرامةً ومسرّةً» .

ثم جاء بالجواب ، وأتى بالسر في تذكير السلام ، فقال : «فجاء (سلام عليكم) بلفظ النكرة ، كما جاء سائر ألفاظ الدعاء» .

ثم تعرض للسر في تعريف لفظ (السلام) من جانب الراد ، فقال :

«وأما تعريف (السلام) في جانب الراد ، فنذكر أيضاً أصلاً يعرف به سره وحكته ، وهو : أن الألف واللام إذا دخلت على اسم (السلام) تضمنت أربع فوائد .

إحداها : الإشعار بذكر الله تعالى ، لأن (السلام) المرفوع من أسمائه .

الثانية : الإشعار بطلب لمعنى السلامة منه للمسلم عليه .

الثالثة : أن الألف واللام يلحقها معنى العموم في مصحوبها ، والشمول فيه .

الرابعة : أنها تقوم مقام الإشارة إلى المعين ، كما نقول : تناولني الكتاب ، واسقني

الماء ، وأعطني الثوب ، لما هو حاضر بين يديك - فأنت تستغنى بها عن

قولك : هذا ، فهي مؤدية معنى الإشارة .

وإذا عرفت هذه القوائد الأربع ، فقول الراد : وعليك السلام - بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به ، وهو هو بعينه ، فكأنه قال : ذلك السلام الذي طلبته مردود عليك ، فلو أتى بالرد منكراً لم يكن فيه إشعار بذلك ، لأن المعروف وإن تعدد ذكره ، واتحد لفظه ، فهو شيء واحد ، بخلاف المنكر .

ومن فهم هذا ، فهم معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - « لن يغلب عسر يسرين » مشيراً إلى قوله تعالى : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (الشرح ٥ ، ٦) فالعسر وإن تكرر مرتين ، وتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد ، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران ، فالعسر محفوف بيسرين : يسر قبله ، ويسر بعده ، فلن يغلب عسر يسرين .

وقائدة ثانية : وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة : مقام فضل ، ومقام عدل ، ومقام ظلم ، فالفضل : أن ترد عليه أحسن من تحيته ، والعدل : أن ترد عليه نظيرها ، والظلم : أن تبخسه حقه ، وتنقصه منها ، فاختير للراد أكمل اللفظتين ، وهو المعروف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيراً ، ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل .

وقائدة ثالثة : وهي أن المناسب تقديم (المسلم عليه) على (السلام) ، فلو نكره ، وقال عليك سلام ، لصار بمنزلة : (عليك دين ، وفي الدار رجل) فخرج عجز الخبر المحض ، وإذا صار خبراً بطل معنى التحية ، لأن معناها الدعاء والطلب ، فليس بمسلم من قال : عليك سلام .

فتعريف (السلام) في الراد باللام إشعار بالدعاء للمخاطب ، وأنه راد عليه التحية ، طالب له السلامة من اسم (السلام) .

استبانة وجوابها :

وإذا كان تعريف لفظ (السلام) هو الأبلغ في الرد ، والأحسن في التحية ، فلماذا جاء (السلام) من الله تعالى بلفظ النكرة فقال تعالى في جزاء المتقين :



« جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ... » (الرعد ٢٣ ، ٢٤) ؟  
يقول ابن القيم في الإجابة عن هذا السؤال : (١٦)

« قد تقدم أن لدخول اللام في (السلام) أربع فوائد ، وهذا المقام مستغن عنها ، لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى ، فلم يقصد تبركا بالذكر الاسم كما يقصده العبد ، فإن التبرك استدعاء البركة واستجلايا ، والعبد هو الذي يقصد ذلك .. وهو غير لائق هنا ، لأن سلاماً منه تعالى كاف من كل سلام ، ومغن عن كل نعمة ، ومقرب من كل أمنية ، فأدنى سلام منه يستغرق الوصف ، ويُمِن النعمة ، ويدفع البؤس ، ويطلب الحياة ، ويقطع موارد العطب والمهلك ، فلم يكن لذكر الألف واللام هنا معنى .

وتأمل قوله تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار » حالين فيها ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر . (التوبة ٧٢) .

كيف جاء بـ (رضوان) مبتدأ مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به ، فأيسر شيء من رضوانه أكبر من الجنات ، وما فيها من المساكن الطيبة وماحوته ، ولذلك لما ينجلي الله لأولياته في جنات عدن ، ويعنيهم أي شيء يريدون ؟ .

فيقولون: رَبَّنَا ، وأي شيء نريد أفضل مما أعطينا ؟ .

فيقول تبارك وتعالى : «إن لكم عندي أفضل من ذلك ، أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا» .

ولأن (السلام) مادام من الله تعالى فهو يكتفي عن كل تحية ، ويغني عن كل دعاء ، وقليل من الله تعالى لا يقال له قليل ، لهذا جاء التكرير في سلام الله تعالى ليحيي — عليه السلام — في قوله : «وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» (مريم ١٥) ، وعرف (السلام) <sup>(١)</sup> عندما سلم المسيح على نفسه في قوله تعالى حكاية عنه : «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» (مريم ٣٣) .



ثم إن ابن القيم يأتي بسؤال عن سبب تذكير لفظ (السلام) في أول رسالة يعثها الرسول صلى الله عليه وسلم لهرقل — عظيم الروم — يقول فيها :

«من محمد — رسول الله — إلى هرقل — عظيم الروم — سلام على من اتبع

الهدى»

وتعريف لفظ (السلام) في قول موسى — عليه السلام — لفرعون ، في قوله تعالى : «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى» (طه ٤٧) ، وما السر في ذلك ؟ .

ويجب ابن القيم عن هذا السؤال بقوله : <sup>(٢)</sup>

«وفي تذكير لفظ (السلام) ما في تذكير (سلام) من الحكمة — يشير إلى أن التذكير : المراد منه : الدعاء ، كما في قولهم : (وبلى له ، ونجى له ، وسقى له ، ورعى) — كما تقدم بيانه .

وأما قول موسى — عليه السلام — «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى» فليس بتحية ، فإنه لم يتدعى به فرعون ، بل هو خير محض ، فإن من اتبع الهدى ، له

(السلام) المطلق ، دون من خالفه ، فإن موسى قال لفرعون : «فَارْزُقْ مَعْنَا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْتَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَقَتْلَى» (طه ٤٧ : ٤٨) .

أفلا ترى أن هذا بتحية ، فليس (السلام) في ابتداء الكلام ولا خاتمته ، وإنما وقع متوسطا بين الكلامين إخبارا محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى ؟ .

ففي ذلك استدعاء لفرعون وترغيب له ، بما جبلت النفوس على حبه وإشارة من السلامة ، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاء به فهو من أهل السلامة .

وهكذا نرى ابن القيم يخلق في الأجواء القرآنية ، ويستخرج من أسرار التعبير في تحية الإسلام «سلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، ويورد ثمانية وعشرين سؤالاً ، ويحبب عنها ، ويطوف في علوم العربية أجمع ، ويتعرض في خلال إجابته لأسباب التعريف والتذكير للفظ (السلام) ، والأسرار البلاغية لكل منها ، ويقلب الأمر ظهراً ليطن بإيراد الأمثلة ، وإبراز الشواهد القرآنية التي توضح ما يريد ، ويدخل على القارئ الطمأنينة والانشراح ، ويمتص القارئ بما وصل إليه من نتائج ، وحصل عليه من لطائف وطرائف .



وفي تتبعنا لابن القيم في كتابه (بدائع الفوائد) وجدنا أنه قد عاد لمثل هذا الحديث وأنه بما يدعو إلى البحث والتدبير ، فقال : <sup>(٢٤)</sup>

«وهنا نكتة بديعة ينبغي التفطن إليها ، وهي أن (السلام) شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه تعالى على المسلم عليهم ، لأنه دعاء بخير ، والأحسن في دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعولة ، كقوله تعالى :

«رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» (هود ٧٣) .

«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» (الرعد ٢٤) .

«سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ» ، «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ» ، «سَلَامٌ عَلَى الْإِسْمَاعِيلِ»  
(الصافات ٧٩ ، ١٠٩ ، ١٣٠) .

وأما الدعاء بالشر فيقدم فيه المدعو عليه على المدعو به — غالباً — كقوله تعالى  
لايُلبس :

«وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي» (ص ٧٨) .

«وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ» (الحجر ٣٥) .

«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ» (الفتح ٦) .

«فَعَلَيْهِمْ قَضَبٌ» (النحل ١٠٦) .

وسر ذلك — والله أعلم — أن في الدعاء بالخير قدموا اسم الدعاء المحبوب الذي  
تشبيه النفوس وتطلبه ، ويلتزم للسمع لفظه ، فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب  
المطلوب ، فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التواد والتحاب والترحم  
الذي هو المقصود بالسلام .

وأما في الدعاء عليه ، في تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء ،  
وأنه عليه وحده ، كأنه قيل لك : هذا عليك وحدك لا يشركك فيه السامعون ،  
بخلاف الدعاء بالخير فإن المطلوب عمومه ، وكل ما عم به الداعي كان أفضل .

فهذه التحية — تحية الإسلام — لا ينبغي أن تكون حشداً من الكلمات ، يؤني  
بها كما اتفق ، يقدم هذه ، ويؤخر هذه ، أو يعرف تلك وينكر تلك دون نظام أو  
رباط — كلا —

بل في تلك التحية ، وفي نظامها — في التعريف والتكبير ، والتقديم والتأخير —  
لطائف طريفة ، وأسرار عظيمة ، مكنونة بين السطور ، أظهرها ابن القيم ، وأخرجها  
من مكانها ، ولو تعقلها كل يادعٍ بالسلام أو رادٍ عليه ، لأدخل على القلب السرور ،  
وملاؤه بالبشر والحيور ، وأنشاع في نفسه معنى السلام والوثاق .





### ثانيًا : اللفظ إذا وقع مفردًا ، أو متنى ، أو مجموعًا

إذا أمعنا الفكر في الألفاظ عند استعمالها في أساليب القرآن الكريم ، ودققنا النظر في آيات الذكر الحكيم ، واستوفينا الكشف عنها في التعبير الرباني ، وقفنا على أسرار عظيمة ، ووجدنا لطائف عجيبة ، ورأينا أنه يذكر في كل موضع ما يلائمه منها ، ويوضع كل لفظ في محله الذي يليق به .

والمشاهد في تعبيرات القرآن الكريم أنه تارة يستعمل لفظ المفرد دون جمعه ، وتارة أخرى يستعمل لفظ الجمع دون مفرده ، ولو حاولنا التغيير والتبديل ، أو إحلال أحدهما محل الآخر ، فقد التعبير ، وذهبت حلاوته ، وفاتته طلاوته .

### السماء والأرض :

والباحث في ألفاظ القرآن يلاحظ أنه حيث ذكر (الأرض) فإنه يمجدها مفردة دائماً ، فيقال : (أرض) ، ولم تأت جمعاً ، ولذلك لم نجد في القرآن (أَرْضُونَ) ، وحيث جاءت في الأسلوب القرآني جمعاً قال : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » (الطلاق ١٢) فأتى القرآن بثلاثة ألفاظ تدل على الجمع بدلاً من (أَرْضُونَ) ، وهذا بخلاف (السماء) ، فقد وردت في القرآن تارة بصيغة المفرد ، وأخرى بصيغة الجمع .

وهذه الظاهرة في الأسلوب القرآني لفتت نظر الجاحظ ، فعلق عليها ، فقال : <sup>(٧)</sup> «قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها... ولفظ القرآن الذي عليها أنه إذا ذكر (سبع سموات) لم يقل (الأرضين) ، ألا تراه لا يجمع (الأرضين) على (أرضين) ، ولا (السمع) على (أسماع) ، والجاري على أفواه العامة بخلاف ذلك » .

فالجاحظ لاحظ هذه الظاهرة في الأسلوب القرآني ، وأن العامة تخطئ حينما تشذ عن ذلك ، ولكنه لم يعلل لها .

لكن ابن القيم انتمى لهذه الظاهرة العلة ، وبين السبب ، فقال : <sup>(٨)</sup> «فإن قلت : لم جمعوا (السماء) فقالوا : (السموات) ، وهلا راعوا فيها ما راعوا في الأرض فإنها مقابلة ، فما الفرق بينهما ؟»

ويجب على هذا السؤال ، فيقول :

« قيل : بينهما فرقان ، فرق لفظي ، وفرق معنوي .

**فأما اللفظي :** فإنهم لو جمعوا (أرضاً) على قياس جمع التكسير لقالوا (أَرْضُص) كَأَفْئِص ، أو (أراض) كأجبال ، أو (أُرُوض) كَقُلُوس ، فاستقلوا هذا اللفظ ، إذ ليس فيه من الفصاحة والحسن والعدوية ما في لفظ (السموات) ، وأنت تجد اللفظ ينبو عنه بقدر ما تستحسن لفظ (السموات) ولفظ (السموات) يبلغ في السمع بغير استئذان لتضاعفه وعدويته ، ولفظ (الأراضي) لا يأذن له السمع إلا على كره ، ولهذا تفادوا من جمعه إذا أرادوه بثلاثة ألفاظ تدل على التعدد ، كما قال تعالى «وَلَقَدْ سَخَّرَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» . كل هذا تفادياً من أن يقال : (أراض ، أو أرض) .

**وأما الفرق المعنوي :** فإن الأرض هي دار الدنيا التي هي بالإضافة إلى الآخرة كما يدخل الإنسان أصيحه في اليم ، والله تعالى لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها محملاً لها لشأنها ، وأما السموات فهي مقر ملائكة الرب تعالى ، وعمل دار جزائه ، ومهبط ملائكته ووحيه » .

ولكن متى مفرد لفظ (السماء) ومتى يُجمع في أساليب القرآن ؟

بعد من القيم لذلك السؤال حوثاً . ويتضمن له شيئاً ، فيقول (١٨) :

« هذا أريد لوصف الشمس تسطوت — وهو معنى لعلو والرفق — أوردوا ذلك  
بحسب ما يتصل به من الكلام والسياق ، ويصرح بها بلفظ الجمع ؛ إذ كان المقصود  
ذواتها — لا مجرد العلو والرفق » .

ثم يأتي بالشواهد الكثيرة من القرآن الكريم يؤكد ذلك . فيقول

« فتأمل قوله تعالى : « أَلَمْ يَتَّبِعْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ . فَإِذَا  
هِيَ تَمُورُ » . أَمْ أَلَمْ يَتَّبِعْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا » (الملك ١٦ . ١٧) .  
كيف أفردت هنا ؟ لما كان المراد الوصف الشامل . والفرق المطلق . ولم يرد سماء  
معينة محصورة

وكذا قوله تعالى : « وَمَا يَغْرِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَتَخَالَفُ دَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي  
السَّمَاءِ » (يونس ٦٩) .

خلاف قوله تعالى : « عالم الغيب لا يَغْرِبُ عَنْهُ مُثْقَلٌ دَرَّةً فِي  
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ » (سبا ٣) فإنه ذكر - سبحانه - سعة مكانه وعده  
- وهو لسموت كلها ، ولأرض - بها - بكل في سورة يونس ما يقتضي ذلك  
أفردتها للجنس .

ونأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالى : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ  
يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ » (الأنعام ٣) فإن أتت مجموعة ها حكمة ظاهرة وهي  
تعمق الطرف في اسمه تاركاً وتدور من معنى (إلهة ، دئمي) ها لأنه معبود في  
كل واحدة وحده من سموت . في كل واحد من هه خمس هو الإله  
معبود . فذكر جمع ها جمع . وحسن من الاختصار عن هه خمس الواحد .

وبناء على هه فهم في قوله تعالى : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ »  
يُحِطُّونَ مِنْ أَمْرِ هه خمس في ظرف عن هه (سموت) . ثم يتألف  
الكلام بعد ذلك . فيقول : « وَلَا عَرَبٌ هه معنى عن هه خمس مفسر لآلة

ي لا يليق بها . فقال الوقف التام على ( السموات ) . ثم يستدئى بقوله « وفي الأرض يعلم سركم »

وعطى في فهم الآية . وإن معناه ما حديثك به . وهو قول محقق أهل التفسير .

ثم يستأنف من انقضى الاستشهاد بالآيات القرآنية . فيقول .

« وتأمّن كيف جاءت ( السماء ) مفردة في قوله تعالى « قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » إِنَّهُ لِحَقٌّ مِّثْلُ مَا أَنْتُمْ تُشَقِّقُونَ » ( المذاريات ٢٣ ) إرادة هذين الحسنيين . أي رب كل ماعلا . وكل ما سفلى . فما كان المراد عموم رويته أتى بالاسم لشامل لكل ما يسمى سماء . وكل ما يسمى أرضا .

واطر كيف جاءت مجموعة في قوله « تُسَبَّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ( الجمعة ١ ) في جميع السور<sup>(١)</sup> . لما كان المراد لإحاطة عن تسبيح سكانها على كثرتهم . وتباين مراتبهم . لم يكن بد من جمع محلهم

ونظير هذا جمعهم في قوله « وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَتَحَضَّرُونَ » ( الأنبياء ١٩ )

وكذلك جاءت في قوله « تُسَبَّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ » ( الإسراء ٤٤ ) مجموعة . إجماعا . لأن تسبح له بدووب ونعشها على اختلاف عددها . وتكبر هذه المعنى بوصفها بالعدد . ولم يقتصر على اسموات فقط . بل قال سبع

واطر كيف جاءت مفردة في قوله تعالى « وَفِي السَّمَاءِ رِجَالُكُمْ وَمَا تَوَعَّدُونَ » ( المذاريات ٢٢ ) فاررق مصر . وما وعدنا به الجنة . وكلاهما في هذه جهة . لا أنها في كل واحدة واحدة من السموات . فكان لفظ الإفراد يليق بها .

ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » ( المحل ) لما كان المراد بي غير أعجب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أتى بها مجموعة .

وتأمل كيف لم يجمع في سياق الإحار بتزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت ، لما  
لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بحسبها ، بل المراد الوصف

وبعد أن يصل إلى القيم إلى هذه النتائج لطلبية ، ويكشف عن تلك الأضرار  
العظيمة ، ويبتسر لأسباب لجميع لعط ( السموت ) وإفريدها ، بعد أن هناك  
آتين من القرآن الكريم يبدو أنها في المعنى سواء . لكن إحداها جاء فيها السماء  
مفردة ، وفي الثانية جاءت بمجموعة .

والآية الأولى قوله تعالى : **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ  
الْأَسْمَاعَ وَالْأَنْصَارَ . وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ . وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .**  
**وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ . هَٰذَا يُدْعَوْنَ اللَّهُ ، (يونس ٣١)**

والآية الثانية : **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ اللَّهُ ، (سبا ٢٤)**

وقد التمس من القيم مسا لهذا الاختلاف ، ونوحيا لضما له . فقال

« قيل هـ من أدق المواضع وأعصها وأعصها مرة . فإن آيات لي في  
يونس سبقت مساق الاحتجاج عبيد ما قروا به . ولم يمكنهم بكاره من كون الرب  
تعالى هو رزقهم ، ومالك أسماعهم وأنصارهم . ومدير أمورهم . ومخرج الحي من  
الميت . وميت من الحي . مما كان مغربا به كنه حس الاحتجاج به عليهم  
وهذا قال بعد أن ذكر أن ذلك من شأنه تعالى « فيقولون الله أي لا اله إلا  
يقرون بذلك ولا يحدونه .

فما طوبى لاحتج عبيد هذه الآية بما كانوا مقرين بربوب الرزق من قبل هذه  
السماء التي يشاهدونها باحس . ولم يكونوا مقرين ولا عابد بربوب برزق من سماء  
إلى سماء حتى تنهي إليهم . ولم يصل عبيد إلى هـ . فأوردت لعط ( لسماء )  
هـ . لأنها لا يمكنهم بكاره في الرزق مما هو موقوف على هو أقرب لأشياء إليهم  
بحيث لا يمكنهم بكاره

وما الآية التي في سبا . هم يتنظم بها ذكر بقرانهم بما يزل من السموات .  
وهذا أمر رسوله أن ينزل الخواب في . ولم يذكر عبيد أنهم هم المهيون فلقرون

فقال : « قُلْ مَنْ يُزِيلُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . قُلْ : اللَّهُ ، وَلَمْ يَقُلْ : هَيِّقُولُونَ اللَّهَ . فَأَمَرَ تَعَالَى بِهِ (سُورَةُ طه) أَنْ حَبَّ أَنْ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَهْدِي بِرُوحِهِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ وَمَنَاقِبِهِ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ » .

وهكذا نجد أن التعبير في القرآن الكريم لم يجمع لفظ (أرض) واستعني عن جمعه بثلاثة ألفاظ مستعد لجمع اسمي لا يوزن لكلام حساس . ولا يصعب بالصفاء والبقاء .

وعندما يستعمل القرآن لفظ (السماء والأرض) مفرد أو جمعا فإنما يستعملهما في محلها الثلاثي . وفي موضعها اندس هـ . ولو حاول التعبير أو تشبيل أو بحال المفرد عن الجمع أو جمع عن المفرد . ندل على . وانعكس المقصود .

### الريح والرياح :

بعد أن ينهي من الكشف عن أسرار البلاغة لإفراد لفظ (السماء) وجمعها . أضاف إلى ذلك ألفاظ أخرى وردت في آيات الذكر الحكيم ، فجمع (الرياح) ، بتدقيقها لسماع عدد البحث والدراسة . منها (الرياح والرياح) ، فيقول : (١١)

« ومن هذا باب ذكر (الرياح) في القرآن حمداً ومفرداً ، بحيث كانت في سياق الرحمة تحت مجموعة . وحيث وقعت في سياق العذاب جاءت مفردة .

وسر ذلك : أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والصفات والمنايع ، وإذا هاجت منها ريح أشد ما يقاتلها . وما يكسر سورتها . ويصدح حديثها . فبشاً من بينها ريح لطيفة تنعم الحيوان والنبات ، فكل ريح منها في مقالها ما يعد لها ، ويرد سورتها ، فكانت في الرحمة رياحاً .

وأما في العذاب فهي تأتي من وجه واحد . لا يقوم لها شيء ، ولا يعارضها غيرها ، حتى تنهي إلى حيث أمرت . لا يرد سورتها . ولا يكسر شرها . فتمثل ما أمرت به ، وتصيب ما أرسلت إليه . وهذا وصف — سبحانه — الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم ، فقال : « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » (الذاريات

(٤١) . وهي التي لا تلتفح ولا خير فيها ، والتي تعقم ما مرت عبه .

وحينما يستقرئ أساليب القرآن الكريم يلاحظ لفظ (الريح) يأتي مفرداً وجمعاً ، ولكل كلمة منها مقام ، فعبت ذكرت (الريح) في سياق الرحمة جاءت مجموعة ، كقوله تعالى :

« اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبَثُّ فِي سُبُلٍ مِثْرَاتُهَا » (الروم ٤٨)  
« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ » (الروم ٤٦)  
« وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِجٍ » (الحجر ٢٢)

وحيث ذكرت في سياق العذاب أنت مفردة ، كقوله تعالى

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ضَرُوصًا فِي أَيَّامٍ نَجَسَاتٍ » (ص ١٦) .  
« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ يَرْوُهَا » (الأحراب ٩)  
« وَأَمَّا عَادُ فَافْتَكَرُوا يَرْيحُ ضَرْصِرَ غَائِيَةٍ » (الحاقة ٦) .

ولقد قال النبي ﷺ فيها رواه ابن عباس - يقول - هاجب ريسح أشفق بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستقبلها وجها على ركبتيه ، ومد يديه إلى اسماء . ثم قال « اللهم جعلها رياحا . ولا تجعلها ريحاً ، اللهم اجعلها رحمة . ولا تجعلها عذاباً » . (١٢)

وقد طرد ذلك في القرآن الكريم ، ولم يشد إلا في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجْرَمَنَ بِكُمْ بِرِيحٌ طَوِيَّةٌ وُلَّوْا بِهَا فَأَنْفَقُوا فِيهَا فَاصْفُ » (يونس ٢٢) .

فقد ذكر في الآية (ريح) الرحمة بالإنفراد - على عكس القاعدة - فقال « بِرِيحٍ طَوِيَّةٍ » ، فلماذا هذا الاختلاف ؟ .

يصل ابن القيم عند الاختلاف في الآية تلك بقوله : (١٣)

« لأنَّ ندم الرحمة هالك - يقصد في البحر - إنما تحصل بوحدة الريح ، لا باختلافها . فإن السعة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فإذا

احتلقت علب لرياح ، وتصادمت ، وتقاتلت ، فهو سب الخلاك ، فالملوك هاراج  
واحدة لا رايح ، وأكد هذا المعنى بوصفها بالظيب دفعا لتوهم أن يكون رجا  
عاصفة ، بل هي مما يفرح بطييا .

ونحن سروره الشديد لاعتدائه إلى هذه الأسرار . وتوقيفه في تلك  
اتحيات . ووقوفه على تلك الصفات ، ووقوفه على السمع موقع القلوب ، وعلى  
السمع موقع الرضا . فيقول : « فبيرة الخضر بصيرته في هذه الرضا الموقفة معحة  
منه ترقص القلوب ما فرح . ويتعدى بها عن الطعام والشراب . ولحمد لله  
الفتاح العليم .

فمثل هذا الفصل بعض عيبه بالواحد ، وتثنى عيبه بالخاص . فبه يشرف ذلك  
على أسرار وعجائب تختبئ من كلام الله . والله شوقى بصوب .

وحق لاس القيم أن يفرح بما وضعه الله من التوصل إلى هذه اللطائف العجيبة .  
ويعترف الحرية . والتي يسعى أن يره لإيمان ربه فيها . ويمتد قلبه وعقله  
باسماع إليها . وعظه بقرائها . كما حب الخضر عيب . إذ هي مما بعض عيبها  
بالنوازل ، وتثنى عليه المختصر .

الظلمات والور . سبل الباطل وسبل الحق . الشياطين والجهنم .

هذه لفات أخرى تجمع وتفرق في سبب القرآن الكريم . ولجميع وإفرادها في  
مواضعها أسرار ولطائف يتوقفها السامع أو القارئ عند البحث . أو الإمعان في  
الدراسة .

فجميع كلمة ( الظلمات ) . وتعدد كلمة ( الور ) . يقول تعالى : « الخمد لله  
الذى خلق السموات والأرض وحقق الظلمات والنور . ثم الدين كضروا برهمن  
يعقوبون » ( الأنعام ١ ) .

وتجميع ( سبل الباطل ) ، ويفرد ( سبل الحق ) . يقول تعالى : « وإن هذا  
صراطى مستقيما فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ( الأنعام ١٥٣ )



وجمع الله جهة (الشال) ، وفرد جهة (اليمين) ، يقول تعالى : «أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا حَقَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُنْتَفَىٰ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشِمَالِ سُجَّدًا لَهُ وَهُمْ دَاخِرُونَ» (التحل ٤٨) .

في نسب في جمع لعط (الظلمات) وإفرد لعط (الور) ، وجمع (سَلَّ الباطل) وإفرد (سِلَّ حق) ، وجمع (الشال) وإفرد (اليمين) في ثلث لآيات الكريمة ٢  
يقول ابن القيم في بيان تلك الأسباب : (١١٤)

«الخوف عي جرح من مشكاه وحده ، وسر دلث - والله أعلم - في طريق الحق واحد ، كما قال تعالى : «هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ» (الحجر ٤١) ، قال مجاهد : الحق طريقه على الله ، ويرجع إليه ، كما يقال طريقك عني ، وظاهر قوله : «وعلى الله قصد السبيل» (الحل ٩) في أصبح القولين ، في السبل المقصود الذي يوصل إلى الله ، وهي طريق عيه ، قال الشاعر

مَهْزٌ لِمَا بَا ، أَيَّ وَادٍ سَكَنَهُ عَيْبٌ طَرِيقِي ، وَ عَمِيَّ طَرِيقَهَا  
والمقصود أن طريق الحق واحد ، إذ مرده إلى الله الملك الحق ، وطرق الباطل متعددة ، ومنشعة ، فبها لا ترجع إلى شيء موجود ، ولا عاينها بوصول إليه ، بل هي بمنزلة بيت الطريق ، وطريق حق بمنزلة الطريق الموصول إلى المقصود ، فهي وإن تنوعت فأصلها طريق واحد .

ولا كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ، بل هي هـا ، أفرد لور ، وجمعت لظلمات ، وعلى هذا جاء قوله : «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا . يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ الظُّلُمَاتُ . يُخْرِجُهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» (البقرة ٢٧٥)

موجود (ولي الذين آمنوا) وهو الله الواحد الأحد ، وجمع أولياء (لذين كفروا) لتعددتهم وكثرتهم ، وجمع (الظلمات) وهي طريق الضلال والعي لكثرتها واحتلالها ، ووحد (لور) وهو دية الحق ، وطريقه استقيم الذي لا طريق إليه سواء

ولم كانت (اليمين) جهة الخير والعلاج . وأنها هم الناحون أفردت . وما كانت (الشمال) جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال جمعت في قوله : عن اليمين والشمال .

وهناك من آيات القرآن الكريم من ألفاظ (الشمال واليمين) مخرج عن هذه القاعدة . فقد أفردت لفظة (شمال) في قوله تعالى في وصف مشهد من مشاهد يوم القيمة : وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ (الواقعة ٤١) ، وفي قوله تعالى : وَخَرُّوا قُرْبَ إِبْلِهِ مِنْ جِثْرِ الْوُرَيْدِ . إِذْ يَتَلَفَّى الشُّفْلَى الْكُفْرَ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّامِ قَعِيدٌ (ق ١٦ ، ١٧) .

وجمعت لفظة (اليمين) في قوله تعالى حكاية عن إبليس : ثُمَّ لَا تَجِدُ لِكُلِّ شَيْءٍ كَيْدًا بِغَيْرِ عِلْمٍ . وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ إِلَّا جَهْدٌ مِنْ يَدَيْكُمْ . وَإِنْ تَنْصَرِفُوا إِلَّا بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ . وَتِلْكَ أَوَّلُ آيَاتِ الْفُتُورِ (الأعراف ٧٧) . فلما أفردت لفظة (الشمال) وجمعت لفظة (اليمين) في الآيات السابقة ، وما هي الأسرار التي دعت إلى هذا التغير ؟

يقول ابن القيم في الإحانة عن الآية الأولى : (١٥)

« قيل حامت (الشمال) ماردة . لأن المارد أهل هذه الجهة ومصيرهم ومآلهم إلى جهة واحدة وهي جهة الشمال ، فلا يحس بحيث مجموع ، لأن طرق الباطل وإن تعددت فمآلها المرد إلى طريق الحق وهي جهة الشمال .

وعن الآية الثانية ، قال :

« لما كان المارد أن لكل عد قعدين ، قعيدا عن يمينه ، وقعيدا عن شماله . يخصيان عنده الخير وشر . فكل عد من تحت يمينه وشماله من الخصمة . فلا معنى للجمع هنا .

وعن الآية الثالثة ، يقول .

« الجمع هنا في مقدس من يريد الشيطان إغواءهم . فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد واحد من بين يمينه ومن خلفه . وعن يمينه وعن شماله ، ولا يحس بها عن نفسه وعن شماله . من الجمع هنا في مقابلة الخصمة بالخصمة تقتضي توريث الأفراد .

وعظمه قوله تعالى : « فَاغِيثُوا وَخُوتَكُمْ وَأَيُّدِيَكُمْ إِلَى الْمَرْفِقِ » (المائدة ٦)

وهذا يرى أن لفظ لقرآن الكريم (اليمين أو الشمال) حيا يأتي في تعبير ما مفرد أو جمع دائما يكون كل نصف في محله للثلاثه . وفي موضعه مناسب . فإذا طرأ أدى تعبير في وضعه . تعبير لمعى وقد الأسلوب . وصحاح لعرص المراد

### المشرق (المشرقين) والمشارق

والبحث في أسماء القرآن الكريم يلاحظ أن معناه (المشرق والمغرب) ثارة تأتي مفردة، وثانية مشاة، وثالثة جمعا.

في حاه الإفراد يقول تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » (الزمر ٦)

وفي التثنية حاه قوله تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » (الرحمن ١٧)

وفي الجمع يقول سبحانه : « فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ . إِنْ أَلْقَاوْنِ . عَلَى أَنْ سَوَّكَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِقِينَ » (المدح ٤٠ . ٤١).

يقول ابن القيم في أسس ذلك لتبديل . وبين الأسرار هي ذات من تعبير العارة والحكمة في وجود هذه الآيات على تلك الصورة ؟ .

وأن من هذه الحكمة نابعه في عبار هذه لموضع في الإفراد وتثنية وجمع حسب مورها يصعد على عصمة لقرآن وحلالته . وأنه تبيين من حكيم حبيب

محيث فرد كان مراد في لشرق ومغرب

ومحيث تب كان مراد مشرق صعودها وهبوطها . ومغربها . فإنها تشدق صاعدة حتى تنهي إلى عاية أوجها وارتداعها . فهد مشرق صعودها . وبث منه فصلا الخريف ولشده . فحمل مشرق صعودها حمته مشرقا وحده . ومشرق هبوطها بمحمله مشرقا واحدا . ويقابلها مغربا .

ومحيث جمعت كان المراد مشارق الشمس ومقاربها

فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والشيبة الجمع .

ولكن ما وجه اختصاص كل موضع من (الإفراد والشيبة والجمع) بما وقع فيه في آيات القرآن السابقة ؟ .

يجيب ابن القيم عن هذا التساؤل إجابة تصدر عن اعتزازه نفسه ، وثقته بحسه ، وبما امرده من تعمق في البحث ، واستقصاء في العود إلى أعماق المعاني . فيقول :

«وأما اختصاص كل موضع بما فيه فلم أر أحداً يحرص له . ولا فتح بابه . وهو بحمد الله فيها بين من السابق .

فتأمل وروده متنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوحات فذكر أولاً بوعي لإيجاد وجه لخلق والتعليم فقال (١٧) . «خلق الإنسان علماً البيان» ثم ذكر سرحي العلم ومظهره — وهما الشمس والقمر فقال «الشمس والقمر بحسبان» .

ثم ذكر بوعي النبات . فإن منه ما هو على ساق ، ومنه ما اسط على وجه الأرض . وهما اللحم والشجر فقال . «التجمل والشجر يسجدان» .

ثم ذكر لسماء والأرض . فقال «والسما والارض وهما» فأحبر أنه رفع هذه ووضع هذه . ووسط بينهما ذكر الميزان

ثم ذكر العدل وانهم في الميزان ، فأمر بالعدل . وسوى عن الظلم . فقال . «وأيمنوا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» .

ثم ذكر بوعي الحادج من الأرض . وهما الخبوت والدار . فقال : «فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو القصب والريحان» .

ثم ذكر بوعي المكلفين . وهما الإنسان . وروح الحادج . فقال . «خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من نار» .

ثم ذكر بوعي مشرقين والمغربين . فقال . «رب المشرقين ورب المغربين» .

ثم ذكر بعد ذلك نوعي البحر الملح والعذب — فقال : « **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** » .

ثم قال ابن القيم بعد ذلك :

« فتأمل حسن تشبيه المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودها لذلك ، وقدّر موضعها اللفظ مفردا ومجموعا تجدد السمع بنبوعه ، ويشهد العقل بتناغمه للنظم » .

وأما ورودها مفردين في سورة المزمل ، فقال فيها ابن القيم :

« ثم تأمل ورودها في سورة المزمل ، لما تقدمها ذكر الليل والنهار ، فأمر رسوله بقيام الليل ، ثم أخبره أن له في النهار سبعا طويلا ، قلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه ، وذكر النهار وما يكون منه فيه ، عقب ذلك يذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار ، فكان ورودها مفردين في هذا السياق أحسن من التشبيه والجمع .

وأما ورودها مجموعين في سورة المعارج ، فيقول ابن القيم :

ثم تأمل مجيئها مجموعين في سورة المعارج في قوله « **فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَائِمُونَ عَلَى أَنَّ نُكَلِّلَ غَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْرِوِينَ** » .

لما كان هذا القسم في سعة ريويته ، وإحاطة قدرته ، والقسم عليه : إذهاب هؤلاء والإتيان بغير منهم ، ذكر المشرق والمغرب لتضمنها انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة ، ونقله — سبحانه — لها ، وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب ، فمن فعل هذا ، كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء ، وينقل إلى أمكنهم غيرا منهم .

وأبضا فإن تأثير مشارق الشمس ومقاربيها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور ، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات ، وأحوال الحيوان ، وانتقالها من حال إلى غيره ، وتبدل الحر بالبرد ، والبرد بالحر ، والصيف بالشتاء ، إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح ، والأمطار والثلوج ، وغير ذلك من التبدلات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومقاربيها ،

فكيف لا يقدر مع ما يشاهدونه من ذلك على أن يبدل خيرا منهم ، وأكد هذا المعنى بقوله : «وما نحن بمسوقين» — فلا يليق بهذا الموضع سوى الجمع .

وحينما اكتفى التعبير القرآني بذكر (المشرق) دون (المغرب) في سورة الصافات كان ذلك لحكمة بليغة ، وسر لطيف ، يفصح عنه ابن القيم ، فيقول :

«ثم تأمل كيف جاءت أيضا في سورة الصافات مجموعة في قوله : «رب السموات والأرض وما بينهما وزب المشرق» (الصافات ٥) لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة وهي السموات والأرض وما بينهما ، كان الأحسن مجيئها بمجموعة ، ليستظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد .

ثم تأمل كيف اقتصر على (المشرق) — دون المغرب — لاقتضاء الحال لذلك ، فإن المشرق مظهر الأنوار ، وأسباب انتشار الحيوان وحياته ، وتصرفه ومعاشه وانسياقه ، فهو إنشاء مشهور ، قدمه بين يدي الرد على منكري البعث ... فكان الاختصار هنا على ذكر (المشرق) في غاية المناسبة للغرض المطلوب .»

وهكذا وجدنا أن للفظ القرآني (المشرق والمغرب) حينما استعمل مفردا كان في محل يليق به ، وعندما جاء مثنى كان في موضع يطلبه لفظ التثنية ، وحينما أتى به مجموعا كان ذلك في مكان يناسب لفظ الجمع .

#### وبعد :

فهذه روضة من رياض ابن القيم ، صفا النظر فيها ، والعطل بها ، كان يتمتع بحاسة تفضاة استطاع بها أن يستشف كنوز المعرفة ، وأسرار البلاغة ، ولطائف اللغة من بين الألفاظ ، ومن خلال الكلمات .

وضع يده على تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في اختيار كلماته ، واصطفاء ألفاظه اصطفاة يتجلى فيه وجه الإعجاز ، فنذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم وقد مرت قرون وقرون ، ومضت أجيال وأجيال ، وكل جيل يفهم منها ما يناسب تفكيره ، ويلانم ذوقه ، ويوائم معارفه ، وتأتي أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ بعينها غير ما فهمته أجيال القرون الأولى .

ولو حاول أي مفكر أو لغوي أن يستبدل بألفاظ القرآن الكريم تلك الألفاظ غيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس ، مما يدل على أنه كلام الله وحده ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً .

وهكذا جاء فكر ابن القيم في ألفاظ القرآن الكريم ، وترك فيه آثاراً تلى ، فانتفع ونفع ، وأروى بها نفوساً عطشى ، وأحيا بها قلوباً ظمأى ، فرحمه الله وجعل الجنة مثواه .



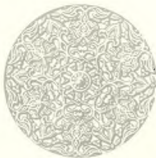
أولاً :



● القرآن الكريم

ثانياً :

- الإنشاف في علوم القرآن/للسبوطي — القاهرة ١٣٧٠ هـ .
- بدائع الفوائد/ لابن القيم — بيروت — بدون .
- الريحان في علوم القرآن/ للزركشي — تحقيق محمد أبو الفضل — القاهرة ١٣٧٧ هـ .
- الريحان الكاشف عن إعجاز القرآن/ للزملكاني — تحقيق د. أحمد مطلوب — بغداد ١٣٩٤ هـ .
- البيان والبيان/ للجاحظ — تحقيق عبدالسلام هارون — القاهرة ١٩٧٥ م .
- التفسير القيم/ لابن القيم — جمع أويس الندوي — القاهرة ١٣٦٨ هـ .
- الطراز/ للعلوي — القاهرة ١٣٢٣ هـ .
- فقه اللغة وسر العربية/ للثعالبي — القاهرة — بدون .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن/ للسبوطي — تحقيق علي الجاوي — القاهرة ١٩٦٩ م .
- ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم/ للميرد — تحقيق الميمني .
- المرتجل/ لأبي محمد بن الحشاش — تحقيق علي حيدر — دمشق ١٣٩٢ هـ .



- (١) بدائع القوائد ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥ .
- (٢) بدائع القوائد ج ٢ ص ٦٦ .
- (٣) وعرف لفظ (السلام) في حق عيسى - عليه السلام - إذ هو ليس وارد على سبيل التحية ، وإنما حاصل من جملة نعمة على سبيل الدعاء ، وإشعار بذكر الله ، فقد قصد في دعائه الرمز إلى ما اشتق من اسم الله تعالى .. ومن ثم كان اختتام الصلاة بـ (السلام) المعروف بالسلام لكونه اسماً من أسماء ، كما كان اختتامها باسم من أسماء سبحانه ( النظر فيريحان الكشاف عن إعجاز القرآن ١٣٧ ، الطراز ج ٢ ص ١٧ ، المكي ج ٢٩٩ ) .
- (٤) نفسه ج ٢ ص ١٦٩ .
- (٥) بدائع القوائد ج ٢ ص ١٧٤ .
- (٦) البيان والتبيين ج ١ ص ٤٠ .
- (٧) بدائع القوائد ج ١ ص ١٤٤ وما بعدها .
- (٨) بدائع القوائد ج ١ ص ١١٥ .
- (٩) بقصد أوائل سور الحديد : يسبح لله ما في السموات والأرض ، والحشر : يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ، والصف : مثلها ، والتغابن : يسبح لله ما في السموات والأرض .
- (١٠) بدائع القوائد ج ١ ص ١١٧ .
- (١١) بدائع القوائد ج ١ ص ١١٨ .
- (١٢) النظر ذلك في الريحان ج ٤ ص ٩ ، الإقنان ج ١ ص ١٩٤ ، المعترك ج ٣ ص ٥٩٦ ، فله اللغة ص ٥٧٣ ، ما اتفق لفظه واختلف معناه ص ١٦ .
- (١٣) بدائع القوائد ج ١ ص ١١٩ .
- (١٤) بدائع القوائد ج ١ ص ١١٩ وموجود في الريحان ج ٤ ص ١٢ ، ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد ص ١٩ ، الإقنان ج ١ ص ١٩٤ ، المعترك ج ٣ ص ٥٩٧ .
- (١٥) بدائع القوائد ج ١ ص ١٢٠ .
- (١٦) بدائع القوائد ج ١ ص ١٢١ .
- (١٧) هذه الآيات من (عقل الإنسان) إلى (مرج البحر ..) أثبتنا لتوضيح الشواهد وليست في كلام ابن القيم وإنما نلهم من قوله .